مستقبل مصر:
امتداد متطور لمشروع يوليو القومى

د. اسماعيل صبرى عبدالله

سيبقى يوليو ١٩٥٢ نقطة وضاءة فى تاريخ مصر ومعلما متميزا على طريق نضال شعبها . ففى الأسبوع الأخير منه أمكن ما كان يبدو عشيته محالا : ضرب النظام الملكى الاقطاعى الموالى للاستعمار على يد الضباط الأحرار .

لقد شهدت البلاد منذ نهاية الحرب العالمية الثانية اشتعال جذوة الحركة الوطنية وتعاظم النضال الشعبى وتوالى اجراءات القمع والتهدئة دون أن يتحقق شيء من المطالب الوطنية والشعبية .. وتدهورت أوضاع البلاد وانتشر العبث والفساد واشتدت وطأة الاستغلال والفقر . ظهرت على سطح المجتمع فئة اغنياء الحرب الذين كونوا الثروات من التعامل مع الانجليز وحلفائهم والاتجار باقوات الشعب وبالسلع التى ندرت فى الأسواق لتعذر الاستيراد بسبب العمليات الحربية واخذ كبار ملاك الاراضى يرفعون ايجار الفدان السنة بعد الاخرى حتى طحنوا المستأجرين . وارهق التضخم الناتج عن الانفاق الحربى الذى كان الانجليز يمولونه بطبع المزيد من الجنيهات المصرية مقابل اذونات على الخزانة البريطانية ، الطبقات الوسطى وطحن الطبقة العاملة وبصفة خاصة عمال الزراعة . وتكاثرت الفضائح المالية بدءا من الملك ، الذى كان يبيع القاب الباشا والبيك ويتاجر فى الأسلحة الفاسدة .. حتى باع منصب رئيس مجلس الوزراء مقابل مليون جنيه ، الى افلاس بعض الشركات المقترنة بأسماء كبيرة فى النظام مثل شركة « زاما » وشركة « الجعفرية » الى انتشار الرشوة حتى عرف أحد الوزراء بلقب « الف مرحبة » المراد به الف جنيه رشوة ، واشتغال السياسيين بالمضاربات الذى بلغ ذروته فى فضيحة « كورتر » القطن فى بورصة الاسكندرية فى ١٩٥٠.

وكانت السمة المميزة للحركة الوطنية ١٩٤٥ — ١٩٥٢ هى الطابع الشعبى الذى يكاد يكون تلقائيا لا تحركه احزاب كبيرة . مثل حركة الطلبة والعمال فى ١٩٤٦ . وكان نجاح « اللجنة الوطنية للطلبة والعمال » فى تنظيم اضرابين عامين (٢١ فبراير و ٧ مارس ١٩٤٦) شارك فيهما الشعب بأكمله حتى محكمة النقض دليلا على سخط الناس على الأوضاع القائمة ورغبتهم فى تغييرها . ثم كان اضراب البوليس الذى لم تشهد البلاد له مثيلا قط .

وكانت حرب فلسطين فى ١٩٤٨ التى اتخذتها الرجعية الحاكمة ذريعة للبطش بالقوى الوطنية، وفرصة للثراء وطعن الجيش المصرى فى الظهر لا بعدم الاعداد الجاد فحسب بل بتزويده بأسلحة فاسدة . وكانت التيارات السياسية المواكبة للتحرك الشعبى ، والتى لا صلة لها بالأحزاب التقليدية ، جديدة على الساحة السياسية : الاخوان المسلمون ، الشيوعيون ، الحزب الاشتراكى (مصر الفتاه سابقا) الحزب الوطنى الجديد . ولم ينجح أى تيار منها فى أن يستوعب حركة الجماهير وينظم نضالها. وحالت الخلافات بينهما وفى داخلها دون تكوين جبهة وطنية قوية . وبدأت أعمال العنف تأخذ مكانها فى الحياة السياسية فى شكل القاء قنابل واغتيالات . وقد أفزع تدهور الأحوال وخشية الانتفاضات الشعبية العنيفة العناصر المستنيرة داخل النظام. فهذا صدقى باشا قطب الرجعية الأعظم يوجه للملك والمرض والسن يقربانه من الموت رسالة تحذير خطيرة . ولكن رد الملك الوحيد كان حظر تشييع جثمان صدقى فى جنازة رسمية كما كان العرف سائدا بالنسبة لرؤساء مجلس الوزراء السابقين . وهذا فريق من رجالات الحكم يتقدمه محمد حسين هيكل باشا رئيس حزب الأحرار الدستوريين ورئيس مجلس الشيوخ

يرفع للملك عريضة تشرح أحوال البلاد وتحذر من مخاطر رآها موقوعها ، فكان رد الملك اسقاط عضوية هيكل وزملائه من مجلس الشيوخ فى ١٩٥٠.

وحين نجح الضغط الشعبى فى الغاء معاهدة ١٩٣٦ غير المتكافئة التى كانت تكرس الوجود البريطانى فى مصر لمدة عشرين سنة (حتى ١٩٥٦) يمكن بعدها اعادة النظر فى شروط المعاهدة وليس فى مبدأ التحالف مع بريطانيا أو وجود جنودها على أرض مصر ، أخذ الشباب يشكل مجموعات من الفدائيين بمساعدة خفية من الضباط الوطنيين ليقض مضاجع الانجليز فى منطقة القناة . ورد الانجليز بكل عنف لا على الفدائيين وحدهم ولكن بضرب المدنيين ايضا فى كفر عبده وفى الاسماعيلية وفايد وغيرها . ولا تفعل المؤسسة الحاكمة اكثر من تآمر بلوكات النظام (ما يقابل الأمن المركزى الآن) فى الاسماعيلية بعدم الاستسلام للقوات البريطانية. أما الجيش فتبقيه بعيدا عن مواجهة المحتل لانه الحصن الأخير للنظام ضد ثورة الشعب . ثم تدبر بليل مؤامرة حريق القاهرة فى ٢٦ يناير ١٩٥٢ وضباط الجيش محتجزون عند الملك بحجة مائدة غذاء احتفالا بأول وليد ذكر يرزق به فاروق . وتعلن حكومة الوفد الأحكام العرفية ويبدأ رجال الأمن فى مطاردة الفدائيين والعناصر النشطة فى الحركة الوطنية ويودعونهم المعتقلات . وفى ٢٧ يناير يقبل الملك حكومة الوفد ويأتى برجل السراى الشهير على ماهر رئيسا للوزراء . ويذهل الناس حين يرون الحكومة المقالة تذهب بكامل هيئتها الى قصر عابدين لتوقع فى سجل التشريفات بالتعبير عن ولائها للعرش ، ويرون برلمان الوفد يمنح الثقة لعلى ماهر وحكومته . ويؤدب الملك القاهرة فيفرض عليها حظر التجول لاكثر من خمسة شهور تعيشها كما لو كانت مدينة محتلة . ويستبد الأسى بجموع المواطنين بعد أن فقدوا ثقتهم فى المؤسسة الحاكمة وما تضم من أحزاب اقلية او اغلبية . **والقوى الجديدة فى ساحة النضال الوطنى مضروبة مفرقة عاجزة عن تشكيل الوعاء التنظيمى الذى يتسع لمجمل الحركة الوطنية كما كانت الحال فى الحزب الوطنى ايام ثورة عرابى او فى الوفد غداة تكوينه .**

ولم يكن يدور بخلد أحد أن ينتظر من الجيش عونا . فهو فى قبضة حيدر باشا خادم السراى المخلص . ويسمع الناس عن « الحرس الحديدى » الذى كونه الملك من ضباط شبان وقام بعدد من محاولات الاغتيال راح ضحية واحدة منها ضابط وطنى شاب . وكانت منشورات الضباط الأحرار لا تصل الا لعدد محدود للغاية من المواطنين المشتغلين بالسياسة والذين كانوا يجهلون هوية تلك الحركةويخشون أن تكون مصيدة اعدها رجال الملك او على الأقل حركة مطالب من ضباط شبان متعلمين ضاقوا بهزيمة ١٩٤٨ ويجهل قياداتهم العليا وفسادها .

كان الظلام عشية تحرك الضباط الأحرار مدلهما لا تلوح فى افقه ادنى بارقة امل فى تغيير الأوضاع ، ولم يكن من المؤمل أن يغيرها عسكريون . بدا لغالبية الناس أن التغيير محال الى أن يقضى الله أمرا كان مفعولا . ثم اذا بهم يرون فاروق طريدا خلال ايام معدودة . ادركت الجماهير أن المحال قد تحقق ، وأن الوطنية الصادقة يمكن أن تنفذ الى داخل القلاع التى أعدتها الرجعية لحماية نفسها . **وقع اول تغيير ايجابى ناجح فى تاريخ مصر الحديث منذ أن نجح التجار وعلماء الأزهر فى تعيين محمد على واليا على مصر فى ١٨٠٥ . وبعد ذلك احس الشعب بأن كل محال يصبح ممكنا اذا صدقت العزيمة وتوافرت القيادة الفاعلة المعبرة عن الجماهير العريضة .** وبهذا المعنى المحدد ، وبغض النظر عن كل تعرجات مسيرة العمل الوطنى يبقى ايمان الناس بأن فى وسعها أن تغير ما لا تريد الى ما تريد وان طال النضال وتشعب وتفاوتت معدلاته سرعة او شمولا . وتلك هى الدلالة الموضوعية الايجابية ليوليو ١٩٥٢ التى لا يمكن أن يمحوها من تاريخ مصر وضمير شعبها أى قول أو عمل مهما كان شأن صاحبه .

الانقلاب والثورة

ويخطىء — فى تقديرنا — خطأ بعيدا كل من يرى فى يوليو مجرد انقلاب عسكرى كتلك التى تقع كل يوم تقريبا فى معظم بلدان العالم الثالث . فتلك نظرة سطحية للأمور تغفل تماما ثلاثة أمور جوهرية .

فاصحاب هذا النظر يرون كل الجيوش سواء، فى كل زمان ومكان ويصطنعون تناقضا غريبا على المجتمع المصرى بين العسكريين والمدنيين . **فتراث الجيش المصرى الحديث يدل على انه جيش وطنى عانى اشد المعاناة من ضربات مباشرة وسيطرة طويلة من جانب الاستعمار .** لقد سرح الاستعماريون الجيش المصرى تسريحا كاملا مرتين : فى ١٨٤٠ (غداة هزيمة ابراهيم

ابن محمد على) وفى ١٨٨٢ (غداة هزيمة عرابى وصحبه) . وفى حين كانت الدول الاستعمارية تبنى الجيوش من ابناء مستعمراتها لتخوض بها حروبها التوسعية (مثل جيش الهند الذى خاض معظم حروب بريطانيا ؛ وجيش الشرق الذى انشأته فرنسا فى سوريا ولبنان) خشى المستعمرون تسليح المصريين حتى خلال الحرب العالمية الثانية التى حشدت لها بريطانيا فى مصر مقاتلين من حوالى عشرة اقطار بعيدة فلم ترغب فى تسليح الجيش المصرى وتدريبه ليشارك فى الأعمال الحربية . ومنذ الاحتلال سيطر الانجليز على الجيش الذى خلف جيش عرابى فكان سردار الجيش ضابطا بريطانيا يحكم السودان فى الوقت نفسه حتى مقتل لى ستاك ١٩٢٤ . وبعدها كانت السلطة فى يد ضابط بريطانى يحمل لقب «المفتش العام» يختاره الانجليز ويعنيه الملك ويمنحه الباشوية (مثل سبنكس باشا الشهير) . وكذلك حرص الانجليز بفضل نظام البدل النقدى للخدمة العسكرية على أن يكون الجنود من أفقر الفلاحين يمضون خمس سنوات فى الجيش لا يتعلمون فيها شيئا . وكانت الطبقات العليا فى المجتمع تترفع عن خدمة السلاح ولو كضابط. وحتى أوائل الثلاثينات كان بالجيش عدد من الضباط من تحت السلاح وكان مستوى التعليم فى المدرسة الحربية متواضعا للغاية . وربما كان التغيير الوحيد الذى طرأ على الضباط هو أنه غداة معاهدة ١٩٣٦ حين تخلى الانجليز عن السيطرة المباشرة على الجيش واكتفوا ببعثة عسكرية ظن بعض الشبان الوطنيين أن السبيل أصبح مفتوحا لبناء جيش وطنى حديث واقبل عدد منهم على التقدم للكلية الحربية . وربما كانت الدلالة أوضح فى اقبال خريجى كلية الهندسة على الخدمة فى سلاح المهندسين. وكان أولئك الشبان جميعا من ابناء الطبقة الوسطى بل وفى احيان كثيرة من الفئات الدنيا من تلك الطبقة . **وليس من قبيل المصادفة ان ينشأ تنظيم الضباط الأحرار بين ضباط التحقوا بالجيش فى تلك الفترة** . كذلك تبين تلك الحقائق أن موقف الضباط الشبان من قيادات الجيش عشية يوليو لم يكن تمردا من جيل يطمع فى احتلال مواقع الجيل السابق له فى داخل فئة عسكرية متجانسة ومتميزة داخل المجتمع .

وهذا ما ينقلنا الى القضية الثانية وهى طبيعة تنظيم الضباط الأحرار . وحقيقة الأمر انه كان تنظيما سياسيا بكل معنى الكلمة . وهذا ما ميزه عن أى تنظيم آخر ظهر داخل الجيش فى فترة سابقة أو فى نفس الفترة . ولوجود هذا التنظيم السياسى بين عسكريين كان طبيعيا أن يفكر فى استخدام التحرك العسكرى كطريق قصير للتغيير . وليس أدل على ذلك من أن برنامج الضباط الأحرار كان برنامجا سياسيا يغطى المجتمع فى مجمله ولا يقتصر على مطالب للعسكريين ، وانه كان معاديا لموقف قيادات الجيش الرسمية الموالية للملك وكان أول اجراء قام به الضباط الأحرار هو عزل تلك القيادات واعتقال عدد كبير من القادة المعزولين .

كانت حركة الضباط الأحرار اذا تنظيما سياسيا . ولا يقدح فى تلك الحقيقة استعانة الثورة بعدد كبير من العسكريين فى المناصب المدنية . فقد كانت تلك الاستعانة أمرا طبيعيا. فأصحاب المهنة الواحدة يعرفون بعضهم بعضا اكثر مما يعرفون المشتغلين بالمهن الأخرى . كما أن ظروف أمن التنظيم الصارمة حالت بينه وبين تكوين اى جناح مدنى له . كذلك لم يكن الضباط الشبان على معرفة بقيادات مدنية شابة تعاونهم « فالشخصيات العامة » المعروفة لهم كانت تبدو وفى نظرهم ملوثة لا يعتمد عليها ولم ينج من هذا التصنيف الا أمثال فتحى رضوان ونور الدين طراف والباقورى الذين كانوا معروفين بمعارضتهم المتسقة للمؤسسة الحاكمة وأحزابها كما كانوا فى سن مقاربة لسن الضباط الأحرار . ويضاف الى ذلك بلا شك أن عددا من الضباط الذين لم تكن لهم صلة سابقة بالنشاط السياسى استغلوا هذا الوضع ليصلوا الى مناصب مدنية رفيعة . كما أن المؤسسة العسكرية التى تكونت بعد الثورة استخدمت عبد الحكيم عامر فى فرض وجود المزيد من العسكريين فى السلطة وفى مختلف المواقع . وقد تميزت السنينات بالمواجهة الصامتة بين المؤسسة العسكرية وعبد الناصر. فى حين اخفقت محاولات عبد الناصر المتكررة لانشاء تنظيم سياسى فى خلق مؤسسة شعبية قوية تواجه ضغط المؤسسة العسكرية .

كذلك حرص عبد الناصر — وهو أستاذ التكتيك فى كلية أركان حرب — على أن يكون للتنظيم طابع جمهورى يعكس فى قيادته كل التيارات المناضلة من أجل الثورة من أقصى اليسار الى الاخوان المسلمين . ومن هنا كانت **المبادىء الستة المعلنة عند الاستيلاء على السلطة تمثل برنامج حد أدنى** ترتضيه جميع الأطراف . واذا كان من بينها ما هو واضح مثل « بناء جيش وطنى قوى » فان أغلبها كان من العموم بحيث يحتمل تفسيرات شتى بل ومتناقضة

مثل « القضاء على سيطرة راس المال على الحكم » ومثل « اقامة ديموقراطية سليمة » . ومن ثم كان حتميا أن يثور الخلاف تلو الخلاف بين قادة الثورة بعد الاستيلاء على السلطة . ومهما كان دور الأشخاص فى تلك الخلافات وأثر اسلوب الحكم فى شكلها وطريقة التعامل معها ، فان من السذاجة أن يعمينا هذا كله عن دلالاتها الموضوعية .

واخيرا ان الثورة تعرف بمحتواها الموضوعى وليس بشكلها أو ادائها . فالثورة علميا هى انتقال السلطة من طبقة أو تحالف طبقى معين، الى طبقة أو تحالف طبقى آخر . **ولا يستطيع احد أن ينكر ان ثورة يوليو قد اطاحت بسلطة تحالف الاستعمار والاقطاع وراس المال المتعاون معهما . ولا شك ان اعتماد التحرك العسكرى بعيدا عن اى تنظيم جماهيرى اداة للثورة كانت له آثار سلبية على مسارها .**

ولكن تلك الآثار لا ترقى الى مستوى اهدار المضمون . لقد كانت ثورة يوليو عملا وطنيا رائعا ، ونقطة تحول كبرى فى تاريخ مصر الحديث . وجاءت — وتلك هى القضية الثالثة — تعبيرا عن حالة المجتمع المصرى الذى كان قد وصل موضوعيا الى وضع ثورى فقدت فيه القوى المتسلطة ثقة الناس ، وشاع الاعتقاد بأنه لا أمل فى طرد المحتل والتصدى لتطوير الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية . لقد كانت مصر حبلى بثورة لا تجد من يقودها . ولا يمكن فهم نجاح حفنة من الضباط الشبان فى الاستيلاء على السلطة وطرد الملك بسهولة فائقة الا بادراك أن تنظيم الضباط الأحرار قد وفر للثورة القيادة التى كانت تنقصها . ولهذا كله لم تكن ثورة يوليو انقلابا عسكريا عاديا من تلك الانقلابات التى تشهدها بلاد العالم الثالث (ومنها الأقطار العربية) كل يوم ، وكان التفاف الشعب حول القيادة الجديدة بشكل تلقائى لابد وأن يؤثر فى سلوك قيادتها . وكان على تلك القيادة أن تحدد سريعا مسارها . وكان طبيعيا أن تقاوم محاولات احتوائها كما كان من الوارد أن تتخلص من أعضائها الذين يمثلون اتجاهات شعبية منظمة أو شبه منظمة يمكن أن تمارس عليها الضغط أو تقف منها موقف المعارضة . ومن هنا سرعان ما صفت القيادة جناحها اليسارى ثم ضربت الاخوان المسلمين . ومع ضرب الاقطاع وحل الأحزاب التقليدية أصبحت قيادة الثورة موضوعيا فى موقف الوسط الوطنى . وتم كل ذلك فى السنتين الأوليين من حياة الثورة .

دور عبد الناصر

وليس هنا مقام العرض التاريخى للتطورات التى توالت بعد استقرار السلطة بيد عبد الناصر ورفاقه . ومن باب أولى لا محل لتقييم كل موقف اتخذته السلطة الثورية والقوى السياسية الأخرى وتفصيل الانجازات الكبرى للثورة وكذلك ما شاب ممارساتها من مثالب أو ما وقعت فيه من أخطاء . ومع ذلك لا يتصور الحديث عن يوليو دون ذكر لقائد تنظيم الضباط الأحرار الذى حكم مصر أكثر من ثمانية عشر عاما.

وهنا أيضا لابد من التركيز على صفات الرجل الأصيلة التى حكمت تصرفاته وسياساته . وكل من عرف عبد الناصر عن كثب يسلم بانه كان انسانا فريدا . فقد ولد بمواهب رجل الدولة بكل ما تعنيه الكلمة من القدرة على التمييز بين الأهداف الأصيلة والمواقف التكتيكية ، بين مصالح الدولة العليا التى تتسم بطابع الاستقرار وبين اعتبارات السياسية الآنية أو قصيرة الأجل ، وبما تعنيه كذلك من تفان فى أداء الواجب وانصراف عن متاع الدنيا والمكاسب المادية للحاكم وأسرته أو حاشيته . كان عبد الناصر عفا نقيا شغله الشاغل المصلحة الوطنية . وكانت قدراته على العمل مذهلة . وليس من المغالاة القول بانه وهب حياته لمصر مرتين . الأولى حين تصدى وزملاؤه لتغيير النظام وأمله فى النجاح لا يتجاوز — على حد ما قاله لى السيد زكريا محيى الدين — ٣٠٪ والمرة الثانية بالعطاء المستمر على حساب صحته حتى الاستشهاد .

وعبد الناصر هو الحاكم الوحيد الذى جمع معرفة واسعة وثقافة متنوعة بعد وصوله للحكم . فالسلطة تعنى الحاكم عن طلب العلم واكتساب الخبرة والمعرفة اذ بوسعه أن يستخدم ما يشاء ومن يشاء من أهل الخبرة . ولكن عبد الناصر كان قارئا نهما يلتهم الكتب والدراسات التهاما بقدرة استيعاب فذة وذاكرة لا تفرط فى شىء . وكان أحرص الناس على الاستفادة من علم كل خبير يقابله ويجيد الانصات لآراء متعددة ومناقشة الحجج . حتى الزيارات الرسمية لرؤساء الدول والحكومات لم تكن مجاملات لأنه كان يحولها الى زيارات عمل يسأل عن أوضاع البلد الذى يقابل رئيسه ومشكلاته وما يراه لها من حلول ويقارن مع أوضاعنا فى مصر . كما جنى الكثير من صلته الوثيقة بزعماء انفذاذ ذوى خبرة واسعة وتجربة طويلة ونظرة عميقة مثل نهرو وتيتو وشوان لاى..واذكر حين استضافت« الطليعة »

الاقتصادى المعروف شارل بتلهايم واستقبله عبد الناصر ، استغرقت المقابلة أكثر من أربع ساعات ونحن فى انتظار الضيف للعشاء فى بيتى . ولم أرد أن أثقل عليه بأسئلة كثيرة فسارعت بأن طلبت منه أن يعطينا انطباعه العام فقال : لقد قابلت الكثير من رؤساء الدول وعبد الناصر هو أول رئيس يعرف تفصيلا ملفات الموضوعات التى يتحدث فيها » .

كانت وطنية عبد الناصر تتسم بالصدق والصلابة . بالصدق لأنه كان يتعلق بمصر الشعب وليس بمفهوم مجرد عن مصر الخالدة . فمثلا كان يقول كلما طلب منه خبير أجنبى الا يوجد مصرى قادر على هذا العمل ؟ فاذا أجابه المسئولين نعم ولكن ليس لديهم الخبرة الكافية ، كان يرد وكيف يكتسبونها اذا أبقيناهم بعيدا عن العمل ؟ ليعملوا بجهد وأمانة ، واذا أخطأوا ليتعلموا من خطئهم . فالمصريون فى نظره هم وحدهم الذين يبنون مستقبل مصر . وهل كان من المتصور الاقدام على تأميم قناة السويس والتصنيع وبناء السد العالى دون ثقة فى المصريين وقدراتهم . أما صلابته فانها مضرب الأمثال حتى كان بعض زملائه وأعوانه يضيقون بها ويردونها الى أصله الصعيدى ..!

وتلك الوطنية الصادقة الصلبة هى التى جعلته يدرك أن مصر هى تلك الملايين من الجماهير المحرومة المظلومة وليست القشرة العليا للمجتمع . ومن هنا كان انحيازه الواضح فى كل منعطف حاسم فى تطور الثورة الى ما يرى فيه مصلحة الفقراء . وقد أدركت الجماهير بفطرتها وتجربتها وحقيقة انحياز القائد لها فأسمته « حبيب الملايين » ، وميزت بين شخصه وبين سلبيات الحكم، استقرت صورته فى وجدانها بقدر ما ابتعدت مصر الرسمية عن النهج الناصرى وحاربت ذكراها وخاضت ضده وهو ميت المعارك التى جبنت عن خوضها فى حياته ويخطىء من يتجاهل هذه « الناصرية الشعبية » العميقة الجذور خطأ ما بعده خطأ .

البعد الديموقراطى

ولا يمكن أن نختم هذا الحديث دون الخوض فى قضية عبد الناصر والديموقراطية . لأن أعداء التقدم يركزون هجومهم عليها ويجاريهم عن حسن نية عدد من المثقفين الليبراليين — ولا يخطر على بال أحد منا أن يدافع عن تصرفات تمس حقوق الانسان الأساسية . ولكن لابد من ابراز عدد من الأمور الهامة .

١ — فعبد الناصر لم يرث تقاليد ديموقراطية ليبرالية مستقرة ثم صفاها . والانصاف يقتضى أن نذكر بأن الحكم الديموقراطى الليبرالى لم يعش فى مصر الا عرضا وعلى مستوى سطحى . فدستور ١٩٢٣ الذى أسماه سعد زغلول دستور الأشقياء أعطى الملك سلطات واسعة . واستمرار الاحتلال البريطانى كان يجعل للمستعمر الكلمة الأخيرة فى لعبة الحياة الحزبية والبرلمانية . وقد أسقط حكومة النحاس فى ١٩٢٧ لأنها كانت تريد أن تلغى قانون التجمهر الذى فرضه الانجليز فى بداية القرن (ومازالت أحكامه نافذة حتى اليوم) . واذا كان صحيحا أن بعض رجال السياسة والفكر والصحافة كانت تتاح لهم فرصة الجدل الحزبى والسياسى من حين لآخر فان حرية الفكر والرأى لم تتجاوز أبدا تلك الحفنة من الناس . لم يعرف الفلاح شيئا عن الديموقراطية ، وكان الفلاحون أكثر من ٧٥٪ من السكان . ومنذ حل أول اتحاد لنقابات العمال فى ١٩٢٤ لم يتمكن العمال من تكوين اتحاد آخر الا بعد الثورة . قوانين مطاردة الرأى التى يطلق عليها قوانين مكافحة الشيوعية بدأت من ١٩٢٤ وغلظت العقوبات فيها فى ١٩٤٦ . وحتى الدستور المعيب عطل فى ١٩٢٨ والغى فى ١٩٣٠ . وما أكثر ما زيفت الانتخابات .

٢ — تنبه عبد الناصر للجانب الاجتماعى للديموقراطية وأدرك أن الحرية ترف لا يملكه من لا يجد لقمة العيش . وقد واجه منذ البداية معارضة الأحزاب القديمة لأى محاولة اصلاح اجتماعى . ومن ثم كانت التغيرات الاجتماعية الضخمة التى أنجزها بأمل بناء ديموقراطية سليمة . والانصاف يقتضى أن نقول ان عبد الناصر لم يكن القوة الوطنية الوحيدة التى قدمت قضايا التحول الاجتماعى أو التوحيد القومى على قضية الديموقراطية . وأعتقد أن غالبية القوى الوطنية والتقدمية فى مصر والوطن العربى وقعت فى نفس الخطأ .

٣ — كان عبد الناصر يتمتع بأوسع تأييد شعبى متصور . ولكنه عجز عن تحويل هذا التأييد الى عمل سياسى ايجابى ومنظم وفاعل يستمر بعد حياته ، يحمى ما حققه ويواصل التقدم . والانصاف يقضى أن نقول أن تجارب الشعوب كلها تثبت أن الأحزاب القوية تبنى فى المعارضة ومن خلال النضال الذى يفرز الناس بصعوباته فمنهم من يصمد ومن تجعل منهم الجماهير قادة ، ومنهم من يتعاطف مع المناضلين ويساندهم دون أن يتحمل بنفسه عبء النضال ،

ومنهم من يعجب بالمناضلين ويحترمهم ويثق فيهم ولكن مشاغل الحياة ومدى الاهتمام بالقضايا العامة يجعل اقصى جهده أن يصوت لهم فى انتخابات حرة . اما بناء تنظيم سياسى من موقع السلطة فالغالب أن تحكمه عملية فوز معاكسة تطرد المناضل الصلب والسياسى الكفء وتجذب طلاب المناصب والمنافع وخدمة السلطة اى سلطة .

٤ — كان عبد الناصر الى حد كبير ضحية البيروقراطية المصرية . فهى أعرق بيروقراطية فى العالم . تدربت على التعامل مع مختلف الحكام . تبدى الاحترام والانصياع وقد تضمر عكس ذلك . لم يجد عبد الناصر مقاومة تذكر من جهاز الدولة (الا فى حالة عبد الحكيم عامر وبطانته من القادة العسكريين) وكان طبيعيا — وهو يشر فى نهاية الأمر — أن يغريه الطريق القصير ، طريق استخدام جهاز الدولة فى تغيير المجتمع . وقد نجح بالفعل فى أحداث تغييرات جسيمة وبأقل تكلفة اجتماعية . ولكن المقاومة الصامتة احتفظت بقواها لترتد عن طريق عبد الناصر عند أول فرصة .

٥ — من الأمور الموضوعية أن تركيز السلطة تركيزا شديدا يؤدى الى عجز الحاكم عن متابعة كل شىء ، ولابد أن ينتهى به الأمر الى الاعتماد على أفراد أو أجهزة . وفى هذا الجو يشتد صراع « الشلل » حول الزعيم ويبطش بعضها ببعض ويتعاظم بالضرورة دور أجهزة الأمن .

وفى غيبة التنظيم السياسى القوى والفاعل والتضييق على حرية الرأى تتعدد التجاوزات ، وتبقى الانحرافات فى الظلام وتتباعد الشقة بين الحاكم ورغبات الجماهير . واذا كان ذلك قد حدث رغم شخصية عبد الناصر الفذة وشعبيته الواسعة وتجرده للمصلحة العامة، فان الدرس هنا يصبح فساد حكم الفرد وطرح فكرة المستبد المستنير نهائيا وادراك انه لا بديل للديموقراطية وان بدا التغيير الاجتماعى أبعد أمدا فى اطار الديموقراطية . فحتى لو كان ذلك صحيحا — وهو غير مؤكد — فان عمق جذور التغيير حين يتم فى اطار ديموقراطى يعوض عن طول الانتظار .

ومن هنا تمسك حزب التجمع الوطنى التقدمى الوحدوى بالديموقراطية السياسية تمسكه بالديموقراطية الاجتماعية — نعم نحن الامتداد الطبيعى لعبد الناصر ، الامتداد المتطور فى ضوء دروس الردة . نحن لا نبحث عن عبد الناصر آخر . ولكننا نريد أن نحول الى حقيقة ما قاله يوما القائد الخالد عقب تهديد لحياته « كلكم عبد الناصر » . نريد أن تضع الجماهير مستقبلها بنفسها بوعيها وبارادتها الحرة . ونحن حزب اشتراكى مقتنع بأن الاشتراكية هى وحدها الطريق المأمون للتنمية المستقلة والمطردة والديموقراطية بشقيها السياسى والاجتماعى . ولكننا نؤمن بأن من حق الشعب أن يختار بنفسه الطريق والحزب والأسلوب .

ملاحظات الطليعة

فيما يلى عدد من الملاحظات التى تقدمها الطليعة ، يتلوها تعقيب قصير وتتلخص الملاحظات فيما يلى :

١ — ان الآراء الخمسة المطروحة تنقسم بوجه عام الى قسمين اساسيين : فئة رأيان (د. عصفور والأستاذ التلمسانى) ينفيان أن يكون ٢٣ يوليو ثورة ، بينما تذهب الآراء الثلاثة الأخرى (الأستاذ فريد عبد الكريم والأستاذ محمود امين العالم ود. اسماعيل صبرى عبد الله ، الى ان ما حدث فى ٢٣ يوليو ١٩٥٢ كان ثورة .

٢ — وتنطلق الآراء التى ابديت من منطلقات ايديولوجية (فكرية) مختلفه :

— ان د. عصفور منطلقه الفكر اللبيرالى . وهنا تكون القضية المركزية التى يتم بمقتضاها محاكمة ٢٣ يوليو هو غياب الديموقراطية وقيام حكم الفرد . وعنده ان حركة الجيش لم تكن حركة شعبية بل انقلاب نفذته من اعلى — وبدون سند دستورى — بيروقراطية عسكرية كانت تقف على راس مؤسسة هى الجيش، مؤسسة القمع الأساسية .

— واما الأستاذ التلمسانى فمنطلقة الفكر الدينى . وهنا يحاكم نظام جمال عبد الناصر من زاوية ان النظام الذى قام لم يقم شرع الله .

ـ وتنطلق الآراء الثلاثة الباقية من مدارس للفكر الاشتراكى ماركسية وغير ماركسية . ويتفق اصحابها على ان ما يجعل من ٢٣ يوليو ثورة هو انها استبدلت بسلطة الملك والاستعمار وكبار الملاك والراسمالية الكبيرة سلطة جديدة. وانه لا يغير من هذه الحقيقة ان الجيش هو الذى استولى على السلطة لأن طلائع هذا الجيش تنتمى الى الطبقة الوسطى بما فيها الفئات الدنيا لهذه الطبقة والى الفلاحين . كما ان ٢٣ يوليو كانت حلقة من حلقات الثورة المعادية للاستعمار ولاستبداد السراى ، هذه الثورة التى قادها الحزب الوطنى (عرابى) وعبرت عنها نضالات مصطفى كامل ومحمد فريد ، ثم تجسدت فى ثورة ١٩١٩ ، ثم اتخذت بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية بعدا وطنيا وشعبيا واسعا واكتسبت مضمونا اجتماعيا عكس ثقل الدور الذى لعبه العمال والفلاحون فيها حتى جاءت ٢٣ يوليو لتحول الجيش الذى كان اداة موجهة ضد الشعب الى اداة تخدم تحقيق اهداف الحركة الوطنية المعادية للامبريالية وحلفائها فى الداخل .

٣ ـ وبينما يتفق الرايان الأولان على انه لم يبق من يوليو شىء فان الآراء الثلاثة الأخرى تتفق ـ بوجه عام ـ على ان المشروع القومى الذى طرحته يوليو مازالت له ركائزه القوية التى تسمح لقوى التقدم بان تتحرك فى الحاضر ونحو المستقبل .

٤ ـ وربما لا نخاطر اذا قلنا ان الآراء الخمسة تكاد ان تلتقى وان اختلفت فى عدد من الحيثيات على ان ثمة انقطاعا او اختلافا عميقا بين الجمهورية الثانية (جمال عبدالناصر) وبين الجمهورية الثالثة (انور السادات) .

٥ ـ واذا صح ان الآراء التى طرحها الأساتذة فريد عبد الكريم ومحمود العالم ود. اسماعيل صبرى عبد الله تتطابق فى بعض اجزائها ، وتتقاطع وتتكامل فى بعض اجزائها الأخرى ، فان هذا لا ينفى ان آراءهم حول صلة « الناصرية » بثورة يوليو ليست متطابقة تماما.

هذا عن الملاحظات .

واما عن التعقيب فينصب اساسا على الاختلاف العميق حول مفهوم « الثورة » . وما يلفت النظر فى واقع حياتنا الفكرية ـ خاصة منذ مطلع ما اصطلح على تسميته « بعصر النهضة » هو ان الرؤى الفكرية المختلفة والمتضاربة تتواجد وتصطرع فيما بينها دون أن يتمكن مذهب من المذاهب او نسق معين من الأفكار (ايديولوجية) من ان تفرض هيمنتها ، وتتمكن ، بالتالى ، من وضع مشروعها المتكامل موضع التطبيق على كافة الأصعدة السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية . وهذه الظاهرة عبرت عن نفسها بكيفية خاصة فى تقييم فترات النهوض او الوثوب الثورى المختلفة التى عرفتها مصر منذ ان نصبت الحركة الشعبية « محمد على واليا » على البلاد .

ان تجربة محمد على اثارت ـ بعد ان اجهضت ـ ما اثارته من تقييمات متضاربة . وثورة ١٨٨٢ (عرابى) التى هى فى اعتقادنا ثورة حقيقية (تصدرها العسكريون) جاء عليها زمن وصفت فيه « بالهوجة » ووصفها وطنيون بانها الحركة التى ادت الى سقوط مصر فى براثن الاستعمار البريطانى . ويتكرر الأمر مع ٢٣ يوليو وذلك على الرغم من ان الحركة الوطنية قد حققت تحت قيادة يوليو مالم تحققه ثورات وانتفاضات سابقة الاستقلال السياسى كاملا لأول مرة ، وتصفية سيطرة الأجانب على الاقتصاد ، وتصفية النظام الملكى تصفية عبرت عن نفسها فى تحرير الفلاحين وهم الأغلبية الساحقة التى كان كثيرا ما يشار اليها تحت اسم « عبيد الأرض » . ثم خطت ٢٣ يوليو خطوات غير مسبوقة فى مصر نحو اقامة صناعات وطنية ، وفتحت أبواب التعليم لأوسع الطبقات الشعبية ، ثم تجاوزت حدودها الاقليمية لتساند بالمال والرجال والسلاح نضال العرب فى الشرق والغرب ، فضلا عن مساندة بعض الشعوب الافريقية . وكل هذه وقائع ملموسة . ويتعين ان يلتزم المؤرخون باثباتها حتى وان اختلفوا حول نتائجها النهائية . ولكن حتى هذه النتائج تظل قابلة للقياس كميا وكيفيا .

واما حرصنا على تحديدها مفهوم ما هو « ثورة » وما يشكل « انقلابا » فمبعثه الحرص على وحدة تراثنا الوطنى ، تراث النضال والتضحيات التى قدمتها الاجيال المتعاقبة . وليس فى هذا الحرص على وحدة تاريخ الكفاح المعادى للامبريالية والاستبداد والظلم الاجتماعى

اى شبهة من شبهات الافتعال . لأن المجرى التاريخى الذى حضره هذا النضال هو امر نلمسه فى حركة المجتمع المصرى : اين كانت، وكيف تطورت ، وماذا حققت . وان رفض الاقرار بوجود هذا المجرى الواحد والعميق معناه ان تاريخنا تصنعه قوى عبثية ، وان حلقاته لا رابط بينها . وهذا من شانه ان يرتد بسلبيات شديدة على وجدان الشعب نفسه ، وعلى عدد من المكونات الأساسية لشخصيته، بكل ما ينذر به مثل هذا الأمر من اغلاق ابواب الحاضر والمستقبل معا .

وفى تقديرنا ان اختلاف المناهج فى النظر الى ماهو ((ثورة)) وما هو ((انقلاب)) هو الذى يثير الجدل حول طبيعة ٢٣ يوليو . ونحن نرجح ان اضفاء صفة الانقلاب على ((ثورة)) ما ونفى وصف الثورة عن حدث تاريخى ، انما يرجع الى سيادة تصورين احدهما تجريدى والآخر مثالى .

اما التصور التجريدى فيسقط البعد التاريخى للحدث ، ويناى عن تحليل التجربة الملموسة او العملية للثورة ، وما احاط بها من ظروف : منها ماهو موضوعى ، ومنها ما هو ذاتى ، وبعضها محلى ، والبعض الآخر دولى . وبما صاحب عملية الثورة من صراعات اجتماعية وسياسية ، وما تولد عن هذه الصراعات من عمليات فرز واستقطاب شديدة التعقيد . بل وما صاحب العملية الثورية من صراعات حادة على مستوى الطلائع التى تصدت لقيادة الثورة وهذا التصور التجريدى يستبعد من التحليل حركة القوى الشعبية وما اسهمت به من انشطة عفوية او داعية . وهى الحركة التى يتوقف على عمقها واتساعها فى نهاية الأمر — ليس نجاح الثورة المعنية فى اسقاط النظام القديم فحسب — بل وتحدد لماذا استطاعت قوة اجتماعية معينة ان تحسم قضية الاستيلاء على السلطة لمصلحتها . ومن هنا ، فان اية عملية ثورية هى من التشابك والتعقيد والعمق بحيث يتعذر معها اختزال الثورة الى مواقف شخصية واجراءات اتخذها هذا القائد او الزعيم او ذاك ، وذلك ايا كانت سلطاته وصلاحياته الفردية .

واما التصور المثالى للثورة فمنشاه الاعتقاد بأن هناك ثورة اجتماعية ((كاملة)) او ((نقية)) وانه يمكن صياغة نموذج مسبق لها استنادا الى دراسة ثورات قد سبق وقوعها . لكن هذا لنوع من الثورات لم يوجد بن ولن يوجد . لا لأن اختلاف الزمان والمكان يجعله متعذر التحقيق فحسب ، بل ان صعوبة تحققه تتضاعف بفعل الفروق الحضارية واختلاف التكوين النفسى للشعوب ، بل لاختلاف طبيعة الاعداد الذين يتصدون للثورة من داخل البلد المعنى او خارجه ولهذا تسلل الثورات سبلا مختلفة فى تطورها، وفى ادائها ، وقبل كل شىء ، فى تقنية (تكتيك) الاستيلاء على السلطة . وسوف تتعدد هذه التقنيات . ففى مصر ثم فى ظرف محدد استخدام القوات المسلحة للاستيلاء على السلطة ولم يكن هذا الأمر مقطوع الصلة — سياسيا واجتماعيا موسسيا — بثورة ١٨٨٢، واعتمادها ايضا على القوات المسلحة . وفى بعض بلاد امريكا اللاتينية . بينما استخدمت الامبريالية والطبقات المتحالفة معها القوات المسلحة لاقامة نظمفاشية ودكتاتورية ، قامت الحكومة العسكرية فى بيرو بتأميم صناعة البترول ، وصادرت ممتلكات وحصص الشركات الامريكية ، وطبقت برنامجا للاصلاح الزراعى ، واتخذت مجموعة من الاجراءات ضد الاقطاع والامبريالية .

ولقد يقال بعد ذلك — وفى هذا قدر كبير من الصحة — ان قيام القوات المسلحة المنحازة الى الأهداف الوطنية والشعبية قد يعكس فى احيان كثيرة ضعف مستوى التنظيمات السياسية فى البلد المعنى ، ولكن هذا لا يغير من حقيقة ان عملية الاستيلاء على السلطة فى الأحوال المشار اليها — ترتبط ارتباطا عضويا ومباشرا بالحركات الوطنية والشعبية التىتتقدم عملية الاستيلاء على السلطة وتصاحبها وتساندها وتشكل ضمانة رئيسية لنجاحها .

ان اهتمامنا بالوصول الى اتفاق حول مفهوم ما هو ((ثورة)) لا يعنى اننا قد حسمنا المشكلة بهذا التعقيب القصير والسريع . ويظل الأمر فى حاجة الى المزيد من الحوار حول ماهية المنهج الذى يساعد على التحليل الملموس لكل عملية تاريخية توصف بانها ثورة ، ثم يسمح بفهم الأسس النظرية الخاصة بحركة هذه الثورة .

((الطليعة))